

الأم... شجرة العطاء

في الصحيح يقال أن (أم) الشيء أصله... ومكة (أم) القرى (والأم) الوالدة ورئيس القوم (أمهم) و (أم) النجوم المجرة و (أم) الدماغ الجلدة التي تجمع الدماغ ويقال (أم) الرأس... مثال ضربة على أم رأسه. ومنها قوله تعالى (هن أم الكتاب). وإذا كان (أم) الشيء أصله... فأصل الطفل أمه.

وبنظرة متأتية في المجالات النفسية والاجتماعية والتربوية والدينية نجد أن هذه الأعمدة هي التي يقف عليها السقف الذي يستظل به الطفل في هجير الحياة... والشاب في عاصفة المراهقة والرجل في أحضان الزوجية والمسن في رحلة الشيخوخة والميت في ظلام القبر.

نظرة علمية :

يرى علماء النفس أن الاضطرابات السلوكية والأمراض النفسية التي تصيب الطفل في أحداثه والرجل في مستقبله تكون نتيجة المعاملة الخاطئة للأبوين... كالاحتكاكات الزوجية التي تخلق الجو العائلي المتوتر الذي يسلب الطفل الأمن النفسي وتناقضات أسلوب المعاملة كالتذبذب بين التسامح والشدّة، العنف واللين، التدليل والاهمال وتكون نتيجة هذه (التورطات) أما خلق روح العدوان والجنوح وبرود العاطفة والاحباط

والوساوس من ناحية أو المغالاة في الاعتماد على الغير والسلوك المدلل وضعف الشخصية من ناحية أخرى.

تجارب وأفكار :

يقول العالم (جيرارد فوجان) عميد معهد استقبال الأطفال في (وودفيل) في لندن أن علاقة الطفل بأمه تمثل المحور الأساسي في نمو الشخصية والأم التي لا تجد التقدير الكافي كانسانه وأم وزوجة في المنزل لا تستطيع أن تعطي الشعور بالأمن (وفاقد الشيء لا يعطيه) فشعور الطفل بسعادة الكبار داخل الأسرة يعطي انطبعا جميلا لنوع الحياة السوية في المستقبل وانعدام العلاقة الودية في دفء الحب والعاطفة لدى الأم يترك بصمات مشوهة في حياة الطفل. وفي غياب هذه المعطيات النفسية تصبح كل أساسيات العناية المادية المتوافرة كالشجرة بلا ظل... وكالبيت بلا سقف فوق الطفل ويصف الموقف :

لأن حنان الأم وعطفها هي الأعمدة التي يقوم عليها بناء شخصية الطفل ويضيف أن العقاب البدني من أم حانية له آثار ايجابية فعالة. بينما العقاب البدني من أم قاسية له آثار سلبية مدمرة مما يؤكد النظرة التربوية في أن القضية ليست نوعية العقاب وانما الشخصية التي تعاقب.

وقد قام العالم الانجليزي « جون بولبي » بفصل بعض الأطفال في عمر ستة أشهر عن أمهاتهم ولاحظ عليهم أعراض الحرمان الجزئي... والكلي. فالحرمان الجزئي ومصدره الأم غير القادرة على عطاء الحب لسبب ما يتمثل في القلق وشعور الكراهية والكآبة وعدم الاستقرار وأعراض العصاب... ووجد أن الحرمان الكلي ومصدره الانفصال والطلاق وحياة الملاجئ ودور الرعاية ويتمثل في عدم القدرة على التوافق الاجتماعي وحدوث تصدع في بناء الشخصية وقد أوجز الأعراض تدريجا في شعور الكآبة ثم اليأس والانسحاب ثم الرفض للآخرين ثم التبلد في المشاعر ثم فقدان الشهية للأكل والنوم ونقص الوزن والمرض والوفاة.

وقد أكد العالم الأمريكي « هارلو » على النظرية في مجموعة من القردة... من فئتين... فئة مع أم صناعية مصنوعة من الأسلاك غير المغطاة بشعر ناعم كالأم ولكنها تحمل الحليب والثانية مع أم من الأسلاك الصناعية المغطاة بشعر ناعم كالأم. ولكنها لا تحمل الحليب. فوجد أن القرد يتعلق بالأم ذات الملمس الناعم وبدون حليب أكثر من الأخرى مما يدل على أنه ليس بالخيز وحده يحيا الانسان وليس بالحليب وحده ينمو الطفل وقد لاحظ أن ملامسة الطفل لأمه هو احدى وسائل الاتصال بين الطرفين أحاسيس الدفء والحنان في لحظة الرضاعة الطبيعية والتي تدخل في نفسه قسما وافرا من الطمأنينة ولذلك وجد أن الرضاعة الطبيعية والتي تدخل في تكوين شخصية الطفل مؤكدا قوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن وفطامه في عامين ان أشكر لي ولوالديك) والفطام لا يقتصر على الفطام البيولوجي وانما الفطام النفسي والروحي حيث دلت التجارب الأخرى ان انفصال الطفل عن أمه يسبب نوعا من قلق الانفصال لأن الشعور المتبادل بالأخذ والعطاء والراحة النفسية لا تقل أهمية من أشباع الحاجات والدوافع الأولية للطفل. فغياب الأم مصدر تعاسة الطفل لأن فقدان الأم يمثل فقدان الأمان.

بينما فقدان الأب يمثل فقدان القدوة وفقدان الاثنين يمثل فقدان القدرة على تكوين الضمير لدى الطفل لأن تكوين الضمير عملية تقمص وامتصاص لقيم الوالدين وبدونهما يكون الطفل ضحية الاضطرابات النفسية والجنوح نتيجة ضعف تكوين الضمير اللاشعوري مما يؤكد أهمية دور الأم في حياة الطفل.

وقد ثبت مؤخرا أن ما يسمى بالأم البديل (Mother Substitute) في دور الرعاية والملاجيء قد يكون له أثر سلبي مثل الرضاعة الصناعية والتي احتلت اهتمام الأسرة الحديثة في كثير من المجتمعات في منتصف هذا القرن حتى وضع أنها أسهل الخيارات وأخطر البدائل لا على صحة الطفل وحده بل على حياة الأم ويكفي أن نذكر العلاقة السببية بين ارتفاع نسبة سرطان الثدي لدى الأمهات والرضاعة الصناعية وفي كل يوم تتكشف حقائق

جديدة تؤكد خصوصية العلاقة بين الطفل وأمه لا من الناحية النفسية فقط وانما من الناحية الجسمية ومعدلات النمو وقد وضح في احصائيات جمعية تبني الأطفال في انجلترا ان كثيراً من الأطفال الذين عاشوا مع الأم البديل رغم دقة الشروط التي فرضت على اختيار الأسرة المتقدمة فيندر وجود الأسوياء مع ارتفاع نسبة الاضطرابات النفسية في المستقبل بالمقارنة مع أطفال الأسرة المتمتعة بوجود الأم في حياة الطفل.

تجمع الأدلة على أنه لا بديل للأم وفي أقسى الظروف التي لا بد منها فان البديل مهما توافرت فيه شروط التطابق ومزايا التقارب فلن يحقق الحد الأدنى من متطلبات نمو شخصية الطفل في غياب الأم... شجرة العطاء... التي تغدق أحلى الثمرات في وقت الجفاف وتنشر فيء الظلال في لحظات الهجير... وتبث الطمأنينة في ليالي الرعب والخوف... وتمنح الأحضان الآمنة في ساعة الهرب من شبح المجهول... ان هذا العطاء المستمر الذي توفره هذه الشجرة الوارفة الظلال، الحبلى بأماني الأجيال لا بد أن تتوافر لها عناصر البقاء وأهم هذه العناصر أن ترتوي جذورها وأن تمتد فروعها لتظل أكبر مساحة في حياة الأسرة. ان الأم التي تفقد الشعور بالأمن تحت ظروف القهر والزجر والهجر لا يمكن إلا أن تكون عدوانية النزعة تحول شعورها بالاحباط الى قسوة مفتعلة تجاه الأطفال انتقاماً أو تنفيساً عن مشاعر الكبت والحرمان. وان الأم التي تعيش معلقة بين الانفصال والطلاق موزعة بين ولاء الزوج وحاجات الأطفال لا يمكن أن تكون عادلة في توزيع أقساط الحب المفقود بشكل مريح في بورصة الحياة العصرية.

ان العالم يحتفل كل عام بعيد الأم... وعيد الشجرة الى آخر قائمة الأعياد الموسمية فاذا كنا نقدم شتى ضروب الهدايا تعبيراً عن فرحتنا بالأم فيجدر بنا في كل عيد أن نغرس في نفوس الأطفال شجرة محبة الأم... ونغرس في قلوب الكبار شجرة معزة الأم... ونغرس في تربة المجتمع شجرة تكريم الأم على مدار أيام العام... الشعلة التي لا تنطفئ في ظلام البيت والشمس التي لا تغيب عن سماء الأسرة... واذا كانت المرأة الأم

هي سيدة النساء بما تميزت به من نعمة الزيجة وفضل الانجاب على غيرها من النساء ففي الحديث (استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع أعوج وان أعوج ما في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء).

وإذا آمننا بأن الجنة تحت أقدام الأمهات وان الجنة ضالة المؤمن فقد توصلنا الى مرحلة من القناعة الكاملة بالأدلة المنطقية العلمية والنفسية والاجتماعية والتربوية والدينية ان الأم شجرة العطاء.

محنة الاختيار بين المال والأطفال

من سورة الكهف « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » صدق الله العظيم.

والسلام على من اتبع الهدى فلا حور أو بدل في هذا القول الفصل ولا رجح كفة على أخرى في ميزان العدالة الذي وقف شامخا أمام كل رياح التغيير التي هبت على مدى العصور.

لذلك لم تكن هنالك مشكلة في التوفيق بين جمع المال ورعاية الأطفال بل أن من ملك مال قارون وابتلى بالعقم عانى من المرض النفسي معاناة المحروم من المال ومن أنعم الله عليه بالأطفال وحرمة المال عانى من المرض النفسي معاناة المحروم من الأطفال ولعل العظمة الكبرى تكمن في امتحان المخلوق أما بقله المال أو عدم الأطفال فكان خاسرا في الحالتين الا من آمن وأتى ربه بقلب سليم...

ومن صورة الاعجاز أن يستوى الغني العقيم والعائل الفقير في المعاناة من المرض النفسي كالشعور بالحزن والاحساس بالكآبة وفقدان اللذة للحياة فالأول يبحث عن طفل يحمل اسمه والثاني يبحث عن مال يكفيه ذل السؤال، ومن ممارستنا اليومية في مجال العلاج النفسي كثيرا ما تجتمع الاضداد وتلتقي النقائض في دوام اليوم الواحد والمصائب تجتمع المصابين فالعقيم يسأل الله أن يأخذ ماله ويعطيه طفلا يشبع غريزة الأبوة والفقير يتضرع اليه طالبا المال قبل العيال... وما بدلوا تبديلا...